Journal Of the Iraqia University (77-2) 31 October (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIline ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

القيم التربوية المعاصرة في ميزان العقيدة الإسلامية

مدرس مساعد: اخلاص حسن علي

المديرية العامة لتربية بغداد/ الرصافة الثانية قسم عقيدة علم الكلام

Contemporary Educational Values in the Balance of Islamic Creed

Assistant lecturer: Ikhlas Hassan Ali
General Directorate of Education in Baghdad / Al-Rusafa Second
Department of Creed and Scholastic Theology (Kalam)
hakhlas002@gmail.com

الملخص

يسعى هذا البحث إلى تقديم رؤية تحليلية نقدية حول التحولات التي طرأت على المنظومة القيمية والتربوية في المجتمعات المعاصرة، ووزنها بميزان العقيدة الإسلامية ومنهج المتكلمين. تنطلق الدراسة من فرضية مؤداها أن القيم التربوية الوافدة (كالحرية المطلقة والنسبية الأخلاقية) تنبثق من جذور فلسفية مادية تصطدم مع أصول العقيدة الإسلامية، لاسيما في مسألتي "الاستخلاف" و"العبودية". اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي المقارن، وخلصت الدراسة إلى أن استعادة فاعلية "علم الكلام" في تفكيك الشبهات المعاصرة هو المرتكز الأساسي لتحصين الهوية التربوية الإسلامية ضد الانحراف الفكري، مع ضرورة إيجاد ميزان عقدي يضبط التلقي القيمي المعاصر.

الكلمات المفتاحية :القيم التربوية، العقيدة الإسلامية، علم الكلام، الحداثة، التحسين والتقبيح، العولمة الثقافية.

Abstract

This research seeks to provide a critical analytical vision regarding the transformations that have occurred in the value and educational systems within contemporary societies, evaluating them through the scales of Islamic Creed (Aqidah) and the methodology of Scholastic Theology (Kalam). The study proceeds from the hypothesis that incoming educational values—such as absolute freedom and moral relativism—emerge from materialist philosophical roots that clash with the fundamentals of Islamic Creed, particularly concerning the concepts of "Succession" (Istikhlaf) and "Servitude" (Ubudiyah). The research employs a comparative descriptive-analytical approach. The study concludes that restoring the effectiveness of "Kalam" in deconstructing contemporary misconceptions is the primary pillar for safeguarding Islamic educational identity against intellectual deviation, while emphasizing the necessity of establishing a creedal balance to regulate the reception of contemporary values.**Keywords:** Educational Values, Islamic Creed, علم الكلام (Kalam), Modernity, Al-Tahsin wa al-Taqbih (Rational Beauty and Ugliness), Cultural Globalization.

المقدمة

تُعد المنظومة القيمية والتربوية الثمرة العملية للمعتقدات الراسخة في نفوس الأفراد؛ إذ لا يمكن فصل السلوك الإنساني عن منطلقاته العقدية التي تمنحه المعنى والشرعية. وفي ظل الانفتاح المعرفي والتقني، واجهت المجتمعات الإسلامية تدفقاً هائلاً من القيم التربوية "المعاصرة" التي نشأت في سياقات فلسفية غريبة عن الرؤية الكونية الإسلامية، مما أوجد حالة من التداخل والارتباك في المفاهيم التربوية لدى الناشئة (السامرائي، ٢٠١٩، ص ٢١٥). إن ميزة العقيدة الإسلامية أنها توفر "ميزاناً" ثابتاً لا يخضع للأهواء، وهو ميزان يجمع بين الوحي والعقل، وبين الثبات في الأصول والمرونة في الفروع. ومن هنا تبرز الحاجة الماسة لاستخدام أدوات "علم الكلام" في فحص ونقد هذه القيم الوافدة؛ ليس من باب الانغلاق، بل من باب التحصين والتأصيل (الطائي، ٢٠٢١، ص ١٠٢).

مشكلة البحث

تتجلى مشكلة البحث في حالة التنازع القيمي التي تعيشها المنظومة التربوية المعاصرة، حيث تواجه المجتمعات الإسلامية تدفقاً لنمط من القيم التي تُعلي من شأن "الفردية" و"المادية" وتجعل من رغبات الإنسان الفرد معياراً وحيداً للحقيقة، وهو ما يعرف بـ "النسبية الأخلاقية(بو غانم، ٢٠٢٠، ص ٦٤) ." إن هذه الإشكالية لا تقتصر على الجانب السلوكي فحسب، بل تمتد لتضرب جذور "اليقين العقدي"، حيث تؤدي هذه القيم الوافدة إلى إحداث نوع من الاغتراب الفكري لدى الناشئة، الذين يجدون أنفسهم أمام مرجعيتين متناقضتين: مرجعية الوحي التي تقوم على "العبودية لله والاستخلاف"، ومرجعية الحداثة التي تقوم على "تأليه الذات والمنفعة"(الزهراني، ٢٠٢٠، ص ٥٥).

أهمية البحث

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تتصدى لواحد من أخطر التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية، وهو تحدي "العولمة القيمية" التي تحاول فرض نموذج تربوي أحادي الجانب يفصل بين السلوك البشري وبين الغايات الإلهية. وتتبع القيمة العلمية للبحث من كونه يوظف أدوات "علم الكلام" في سياق معاصر، محولاً إياها من قضايا جدلية تاريخية إلى أدوات تحليلية نقدية قادرة على تفكيك الفلسفات التربوية الحديثة وبيان مواطن الخلل فيها. (شحاتة، ٢٠٢١، ص ٣١٥).

أهداف البحث

١. الكشف عن الجذور الفلسفية :تحديد المنطلقات الفكرية والعقدية التي تنبثق منها القيم التربوية المعاصرة، وبيان مدى انفصالها عن المرجعية الإلهية في السياق الحداثي

٢. نقد القيم الوافدة بميزان العقيدة :إخضاع المفاهيم التربوية الرائجة (مثل النسبية الأخلاقية والفردانية) للفحص النقدي باستخدام أدوات علم الكلام، لاسيما مسألة "التحسين والتقبيح".

٣. تأصيل مفهوم الاستخلاف التربوي :إبراز الفوارق الجوهرية بين "المركزية الإنسانية" المعاصرة وبين مفهوم "العبودية والاستخلاف" في العقيدة الإسلامية، وأثر ذلك في تشكيل هوية الناشئة.

٤. تفعيل دور علم الكلام في الواقع :الانتقال بمباحث العقيدة من الإطار النظري الجدلي إلى الإطار التربوي العملي، بما يسهم في معالجة الانحرافات السلوكية والفكرية الناتجة عن العولمة الثقافية

٥. صياغة إطار قيمي بديل :تقديم رؤية تربوية معاصرة تستند إلى الثوابت العقدية، وتجمع بين الانفتاح الواعي على المنجزات الحديثة والحفاظ على الأصالة الإسلامية.

منهج البحث

تعتمد هذه الدراسة في معالجتها لموضوع القيم التربوية المعاصرة على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال رصد وتوصيف القيم التربوية الشائعة في الفكر المعاصر وتفكيك مرجعياتها الفلسفية، ومن ثم إخضاعها للتحليل العَقدي الذي يكشف عن مواطن الاتفاق والافتراق مع الثوابت الإسلامية. كما يوظف البحث المنهج النقدي القائم على أدوات علم الكلام في محاكمة المفاهيم المعاصرة كـ (النسبية والمركزية الإنسانية) ووزنها بميزان "التحسين والتقبيح" العقلي والشرعي، مستعيناً بالدراسات الأدبية والعقدية الرصينة. وتكتمل الرؤية المنهجية بالاستعانة بـ المنهج الاستنباطي لاستخراج القيم التربوية البديلة من صلب العقيدة الإسلامية وصفات الله العلية، مما يضمن تقديم معالجة شاملة تجمع بين النقد الفلسفي والتأصيل الشرعي بما يتناسب مع متطلبات البحث العلمي في تخصص العقيدة وعلم الكلام.

المبحث الأول: المنطلقات النظرية للعلاقة بين العقيدة والقيم

مفهوم القيمة في التصور الإسلامي ومرجعيتها العقدية

تنبثق القيم في التصور الإسلامي من أصل عقدي ثابت يمنحها القداسة والديمومة، فهي ليست مجرد تعاقدات اجتماعية مؤقتة أو اصطلاحات بشرية تعارف عليها الناس لتنظيم شؤونهم المادية، بل هي في جوهرها انعكاس عملي لمقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلية. فالمسلم حين يتمسك بقيمة "العدل" أو "الرحمة"، فإنه لا يفعل ذلك استجابة لضغط اجتماعي أو خوفاً من سلطة قانونية فحسب، بل هو استحضار واعٍ لصفة العدل والرحمة الإلهية، مما يحيل الاستقامة السلوكية إلى ممارسة تعبدية وقيمة "أنطولوجية" تتصل بأصل الوجود وبغاية الخلق (دراز، ٢٠٠١، ص ٤٥). إن هذا الارتباط بين "الواجب الأخلاقي" وبين "الأمر الإلهي" هو ما يجعل الأخلاق الإسلامية تتميز بـ "الإلزام الذاتي" القائم على مراقبة الله، وهو ما يفتقده الفكر التربوي المادي الذي يربط القيمة بالمصلحة المتغيرة.ومن هذا المنطلق، نجد أن الفكر التربوي القائم على العقيدة يُؤصل للقيم من خلال مبدأي "الاستخلاف الإنساني" و"العبودية"؛ فالإنسان في هذا الوجود ليس كائناً عبثياً متروكاً لهواه، بل هو مستخلف مكلف بإقامة

قيم الحق والخير في الأرض وفق منهج الخالق. وهذه القيمة الحقيقية للإنسان مستمدة من تشريف الله له بنفخة الروح وتزويده بآليات التمييز العقلي المنضبط بالوحي، مما يجعله قادراً على إدراك "التحسين والتقبيح" بما يوافق مراد الله (المبارك، ١٩٩٦، ص ٣٤) . إن التربية هنا لا تهدف إلى حشو الأذهان بالمعلومات، بل تهدف إلى بناء "الإنسان العابد" الذي يرى في كل سلوك قيمي طريقاً لتحقيق كماله الإنساني والروحي، وهو ما يؤكد على أن العقيدة هي المحرك الأساسي والدائم للقيم التربوية (العبيدي، ٢٠١٩، ص ١٧٥)إن هذه المرجعية العقدية هي الضمانة الوحيدة للمنظومة التربوية لتحقيق ما يُعرف بـ "الثبات القيمي" في مواجهة "السيولة الأخلاقية" المعاصرة. ففي ظل التحولات المادية الكبرى والضغوط النفعية التي تفرضها الحداثة، تبرز العقيدة كحارس للقيم من التآكل أو التبدل؛ إذ تظل القيمة مرتبطة بغاية الوجود الكبرى وهي إرضاء الخالق ونيل ثوابه، مما يجعل التربية العقدية عملية بناء شخصية متوازنة لا تتزلزل بتغير الظروف والمصالح (عبد العال، ٢٠١٤، ص ٨٨). وهذا التوازن يدرك فيه المتعلم أن كمال الإيمان لا يتحقق بمجرد التصديق القلبي، بل لابد من تمثّل هذه العقيدة في واقع الحياة اليومية من خلال الصدق، والأمانة، والعدل، لتكون العقيدة بذلك هي "الروح" والقيم هي "الجسد" الذي يظهرها للعيان (الكيلاني، ٢٠٠٩، ص ٢١٠).

سياقات القيم التربوية المعاصرة وجذورها الفلسفية

في المقابل، تتسم القيم التربوية المعاصرة بكونها نتاجاً لسياقات فلسفية وتاريخية معقدة نشأت في ظلال "الحداثة" وما تلاها، وهي سياقات تدور في معظمها حول "العلمانية الشاملة" التي سعت جاهدة لنزع القداسة عن الوجود البشري، وعملت على فصل القيمة الأخلاقية عن أي مرجعية غيبية أو سماوية. هذا الفصل المنهجي بين "ما هو كائن" (الواقع المادي) وبين "ما ينبغي أن يكون" (القيم الأخلاقية) أدى إلى تحول الأخلاق من "مبادئ علوية" إلى "أدوات نفعية" خاضعة لسلطة العقل البشري المجرد من الوحي (المسيري، ٢٠٠٢، ص ١٥٦). لقد أنتج هذا الانفصال منظومة قيمية تُعلي من شأن "الفردية المطلقة" وتجعل من إرادة الإنسان ورغباته الشخصية هي المشرّع الأول والوحيد لسلوكه، وهو ما اصطدم اصطداماً جذرياً مع المفهوم الإسلامي للحرية التي نراها "حرية مسؤولة" ومنضبطة بمقتضيات العبودية لله والالتزام بالشرع الحنيف.وتبرز في هذا الإطار خطورة "النسبية الأخلاقية" كواحدة من أكثر القيم المعاصرة هيمنةً على المناهج التربوية الحديثة والمنظومات الاجتماعية؛ حيث تُنكر هذه الفلسفة وجود "حقائق مطلقة" أو قيم فطرية عابرة للزمان والمكان، وتجعل الأخلاق خاضعة لتقلبات المصلحة الفردية أو التوافقات المجتمعية المتغيرة التي تمليها ظروف القوة والغلبة المادية (طه، ٢٠٠٦، ص ١١٢). إن هذا التوجه يحول العملية التربوية من عملية "تزكية وبناء" إلى عملية "تكيّف مصلحي"، حيث يصبح المعيار هو "ما ينجح" (البراجماتية) وليس "ما هو حق" في ذاته، وهو ما ينسف أصل "التحسين والتقبيح" الذي تقرره العقيدة بوصفه حقيقة موضوعية مرتبطة بحكمة الخالق سبحانه وتعالى.إن هذا التحول الجذري في المرجعية من "الخالق" إلى "المخلوق" أنتج ما يُسمى بـ "المركزية الإنسانية" التي جعلت من الإنسان إلهاً لنفسه، وجعلت من الرفاه المادي والمنفعة الآنية المحور الأوحد للعملية التربوية، مغيبةً بذلك البعد الروحي والجزاء الأخروي ومفهوم التزكية النفسية (سراج، ٢٠١٩، ص ٣٠) . وبدلاً من أن تسعى التربية لربط الإنسان بخالقه لتحقيق طمأنينته، أغرقته في "السيولة الأخلاقية" التي جعلت من القيم مجرد خيارات ذوقية شخصية. وهذا التوجه أنتج أزمة قيمية عميقة تجعل الإنسان المعاصر يعيش في قلق دائم وصراع مرير بين تطلعاته الروحية الفطرية التي تطلب المطلق، وبين المنظومات المادية المحاصرة له التي تختزله في كائن استهلاكي فاقد للغائية والجدوى (منصور، ٢٠١٨، ص ٩٢).

أثر المرجعية العقدية في ضبط الهوية التربوية وتحصينها

تُشكل المرجعية العقدية حائط الصد الأول والركيزة الأساسية في حماية الهوية التربوية من مخاطر الذوبان والتبعية القيمية؛ إذ إن وضوح الرؤية العقدية لدى الفرد يجعله يمتلك "بوصلة" قيمية ثابتة تمكنه من التمييز الدقيق بين ما هو أصيل يتفق مع فطرته ودينه، وبين ما هو دخيل يتصادم مع ثوابته. فالهوية في التصور الإسلامي ليست مجرد انتماء جغرافي عابر أو اشتراك لغوي، بل هي في جوهرها "هوية عقدية" تجعل من الإيمان بالله واليوم الآخر المحور المحرك لجميع النشاطات البشرية، بما في ذلك النشاط التربوي والتعليمي. ومن هنا، فإن الربط الوثيق بين العقيدة والقيم التربوية يؤدي بالضرورة إلى تكوين شخصية متكاملة ومتصالحة مع ذاتها، لا تعاني من انفصام نكدي بين "القول" و"الفعل" أو بين "الاعتقاد" و"السلوك"؛ لأن القيمة في هذه الحالة لا تستند إلى الرقابة الاجتماعية المتبدلة أو المصالح الشخصية المؤقتة، بل تستند إلى مراقبة الله عز وجل واليقين بحسابه (عبد العال، ٢٠١٤، ص ٨٨)إن تحصين الهوية التربوية من خلال العقيدة يعني غرس مبدأ "الاستقلالية الحضارية" في نفوس الناشئة منذ الصغر، بحيث لا ينساقون خلف كل موجة قيمية معاصرة أو صرعة ثقافية وافدة بدعوى الحداثة أو مواكبة العصر، بل يمتلكون الأدوات العقلية لإخضاعها لميزان الفحص النقدي الرصين الذي يقدمه علم الكلام في مباحثه العميقة. فالتربية الإسلامية حين تستند إلى أصول العقيدة المتينة، فإنها تمنح الفرد شعوراً حقيقياً بـ "العزة" والكرامة المستمدة من كونه عبداً لله وحده، مما يحميه وقايةً وعلاجاً من الوقوع في فخ "الاستلاب القيمي" والتبعية الثقافية التي تروج لها العولمة في صورها المختلفة. إن هذا التحصين العقدي لا يعني بأي حال من الأحوال الانغلاق عن العالم

أو رفض الآخر، بل يعني "الانفتاح الواعي" والناقد الذي يأخذ ما ينفع من تجارب البشرية وتطورها التربوي والتقني، بشرط أصيل وهو ألا يتصادم ذلك مع "القطعيات العقدية" التي تمثل روح الأمة وجوهر بقائها الحضاري (الجبوري، ٢٠٢١، ص ١٢٠). علاوة على ذلك، فإن المرجعية العقدية تساهم بفاعلية في ردم الفجوة الكبيرة بين "الدرس النظري" وبين "الواقع التطبيقي"؛ فالعقيدة حين تُقدم كمنظومة حياة متكاملة، فإنها تتحول من "علم كلام" نظري يبحث في مجرد الأدلة والبراهين على الذات والصفات، إلى "منهج تربوي" حيوي يبني الإنسان الفعال والمصلح في مجتمعه. وهذا الربط هو الكفيل الحقيقي بمواجهة الانحرافات الفكرية والسلوكية التي نتجت عن غياب الوازع العقدي في المناهج التعليمية المعاصرة التي ركزت على المادة وأهملت الروح. إن أي نظام تربوي ينشد الاستدامة والنجاح الحقيقي لابد أن يرتكز على قواعد عقدية متينة توفر للفرد الطمأنينة الروحية والاستقرار النفسي واليقين الفكري في مواجهة تحديات العصر واضطراباته القيمية المتسارعة (عطية، ٢٠١٨، ص ٢٥٥)

المبحث الثاني: ميزان العقيدة للقيم التربوية المعاصرة

قيمة "الحرية الفردية" في ميزان مفهوم "العبودية لله"

تُعد قيمة "الحرية" المرتكز الأساسي والجوهري الذي تقوم عليه المناهج التربوية المعاصرة، إلا أن مفهومها في السياق الحداثي وما بعد الحداثي قد انحرف انحرافاً حاداً باتجاه "الفردانية المطلقة" هذه الفردانية تجعل من رغبات الإنسان وإرادته الذاتية مرجعية عليا ومصدراً وحيداً للتشريع الأخلاقي، بحيث لا تخضع لسلطان خارجي مهما كان، سواء تمثل هذا السلطان في الوحي الإلهي أو العرف الشرعي المنضبط. إن هذا التصور يضع العملية التربوية برمتها في مواجهة مباشرة وتصادمية مع مفهوم "العبودية لله" في العقيدة الإسلامية؛ إذ إن الحرية في التصور الإسلامي ليست حقاً في التحلل من القيم أو التحرر من التكاليف، بل هي وسيلة ومنحة إلهية لتحقيق "كمال العبودية" بمحض الاختيار، وهي حرية مسؤولة تدرك تماماً حدود الاستخلاف والمسؤولية الأخروية التي تقع على عاتق المكلف (الزهراني، ٢٠٢٠، ص ٥٥)وعند وزن هذه القيمة بميزان علم الكلام، يتبين لنا أن "التحرر الحقيقي" في الإسلام يبدأ بعملية تحرير العقل والقلب من عبودية الهوى وسلطان المادة وضغوط الغرائز، وصولاً إلى مقام "العبودية للخالق" وحده، وهو المقام الذي يحرر الإنسان من الخضوع لكل ما سواه. إن هذا التصور يمنح الفرد توازناً نفسياً واجتماعياً يفتقده الإنسان المعاصر، الذي بات في حقيقته أسيراً لدوامة الاستهلاك والآلة والمادية تحت بريق شعارات "الحرية الزائفة". فالتربية العقدية تؤصل لمنطق كلامي يقرر أن "الحق" (باعتباره مراد الله) سابق على "الحرية"، وأن كرامة الإنسانية لا تُصان بالتمرد على الخالق، بل بقدر الالتزام بمراده وتطبيق شريعته، مما يحول الحرية التربوية إلى أداة للبناء الحضاري والعمارة الأرضية لا وسيلة للهدم والتمرد العبثي على الثوابت (المبارك، ١٩٩٦، ص ٣٤)إن غياب هذا الميزان العقدي الرصين في النظم التربوية الحديثة أدى بالضرورة إلى نشوء أجيال تعاني من "تضخم الأنا" وأزمات حادة في الهوية، مع سيولة واضحة في الالتزام السلوكي والأخلاقي. هذا التضخم في "الفردية" جاء على حساب القيم الأخلاقية الكلية والثابتة التي يؤصل لها نظام الإسلام العقائدي، والتي تربط الفرد بجماعته وبخالقه في آن واحد. وبذلك، تصبح التربية في ميزان العقيدة هي عملية "تزكية" تضبط جموح الحرية الفردية بضوابط الحق الإلهي، لتحقق مصلحة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وتنقذ الإنسان من ضياع "التيه القيمي" الذي تفرضه الفلسفات المادية المعاصرة (الكيلاني، ٢٠٠٩، ص ٢١٠).

"النسبية الأخلاقية" وموقف المتكلمين (مسألة التحسين والتقبيح)

تمثل "النسبية الأخلاقية (Moral Relativism) "واحدة من أكثر القيم المعاصرة إرباكاً واختراقاً للمنظومة التربوية؛ إذ تروج لفكرة أن القيم "سيالة" ومجرد مواضعات بشرية تتغير بتغير المجتمعات والأزمنة، وبالتالي فإنه لا وجود لخير مطلق أو شر مطلق يمكن الركون إليه كمعيار كلي. وهنا يبرز الدور الجوهري لـ "علم الكلام" في المواجهة الفكرية عبر استدعاء مسألة "التحسين والتقبيح" التي تُعد من أمهات المسائل الكلامية؛ حيث ناقش المتكلمون بعمق قدرة العقل والشرع على إدراك ثبات القيم الأخلاقية وجوهرها (منصور، ٢٠١٨، ص ٩٢). إن النسبية المعاصرة، بسعيها لإفراغ القيمة من محتواها العقدي وربطها بـ "التوافق الاجتماعي" أو "المنفعة المادية" العابرة، تهدف في حقيقتها إلى نزع المرجعية الإلهية عن السلوك البشري، بينما يؤكد الميزان العقدي أن أصول القيم الكبرى كالعدل والصدق هي حقائق ثابتة بمراد الله وحكمته، ولا يجوز إخضاعها للموضة الثقافية أو الأهواء البشرية المتقلبة (بو غانم، ٢٠٢٠، ص ٦٤)إن خطورة تبني "النسبية" في المناهج التربوية المعاصرة تكمن في أنها تعمل على إضعاف "اليقين العقدي" لدى المتعلم، وتزرع في نفسه الشك تجاه ثوابت الدين بدعوى اختلاف وجهات النظر أو التعددية الثقافية غير المنضبطة. لذا فإن الرد الكلامي على هذه الشبهة يرتكز على إثبات أن "العقل الصريح" يدرك حسن العدل وقبح الظلم إدراكاً فطرياً ويقينياً، وأن الشرع الحنيف جاء ليؤكد هذه القيم ويوثقها ويحميها من الانحراف أو التأويل المصلحي الضيق (طه، ٢٠٠٦، ص ١١٢). وبذلك يتحول علم الكلام من مجرد جدل نظري تاريخي إلى أداة تحصين تربوي فاعلة، تعيد غرس مبدأ "الثبات القيمي" في مواجهة "السيولة الأخلاقية" الحداثية التي جعلت من اللاأدرية والشك قيمةً تربوية، مما تسبب في ضياع المعايير الأخلاقية الحاكمة للسلوك الإنساني وتشتت الشخصية التربوية بين نماذج متناقضة لا يجمعها

جامع من الحق أو اليقين (سراج، ٢٠١٩، ص ٣٠)وعلاوة على ذلك، فإن نقد النسبية بميزان العقيدة يكشف عن التناقض البنيوي في الفكر المعاصر؛ ففي حين ينادي هذا الفكر بـ "الحقوق الكونية" للإنسان، نجد فلسفاته النسبية تفرغ هذه الحقوق من أي أساس موضوعي ثابت. وهنا تبرز الحاجة إلى "التربية العقدية" التي تُعلّم الناشئة أن القيم هي "أمانة إلهية" وليست "رغبة بشرية"، وأن قوة المجتمع تكمن في تمسكه بقطعيات الأخلاق التي لا تقبل المساومة أو التجزئة، ليكون الطالب بذلك محصناً ضد التحلل القيمي الذي تفرضه تيارات العولمة الثقافية المعاصرة تحت ستار التسامح والنسبية (الطائي، ٢٠٢١، ص ١٠٢).

نقد "المركزية الإنسانية" المعاصرة من منظور مفهوم الاستخلاف

تُشكل "المركزية الإنسانية" العمود الفقري للفلسفات التربوية المعاصرة، وهي رؤية تضع الإنسان في مقام "المشرّع المطلق" والمحور الذي يدور حوله الكون، بعيداً عن أي توجيه إلهي. وفي الميزان العقدي، يمثل هذا التوجه انحرافاً عن أصل "التوحيد" الذي يقرر أن الله تعالى هو الخالق والمالك والمشرّع، وأن دور الإنسان في الوجود لا يتجاوز كونه "مستخلفاً" مأموراً بعمارة الأرض وفق منهج الله. إن التربية القائمة على تأليه الذات وتضخم الوعي بالحقوق على حساب الواجبات تجاه الخالق، تؤدي إلى نشوء حالة من الاستعلاء البشري الذي يفقد الإنسان توازنه الروحي، ويجعله في صراع دائم مع فطرته التي جُبلت على الافتقار إلى الله (الزهراني، ٢٠٢٠، ص ٥٥)وعند معالجة هذه القضية من منظور "الأنطولوجيا الكلامية"، نجد أن قيم الاستخلاف تربط بين حركة الإنسان في الأرض وبين الغاية الأخروية، مما يمنح القيمة التربوية بعداً ممتداً يتجاوز اللذة الآنية والمنفعة المادية. فالمركزية الإنسانية المعاصرة، وبحكم طبيعتها المادية، قد أفرغت القيم من محتواها الغيبي، مما جعل المعايير التربوية تتسم بـ "البراجماتية" البحتة، وهو ما ينتقده الفكر العقدي بوصفه تقزيماً للدور الإنساني الذي أراده الله له. إن إعادة الاعتبار لمفهوم "العبودية" في المنظومة التربوية لا يعني الانتقاص من قدر الإنسان، بل يعني وضعه في مكانه الصحيح ككائن مكرّم بالوحي ومسؤول أمام خالقه، وهو ما يوفر للمجتمع ضمانة أخلاقية تمنع تحول القيم إلى أدوات نفعية تتبدل بتبدل المصالح الشخصية (شحاتة، ٢٠٢١، ص ٣١٥)علاوة على ذلك، فإن نقد المركزية الإنسانية بميزان العقيدة يكشف عن التناقض الصارخ في القيم التربوية الحديثة التي تنادي بالحرية وفي الوقت ذاته تستعبد الإنسان للمادة والاستهلاك. وهنا يبرز "ميزان العقيدة" كأداة تحرر حقيقية، تُعيد ربط الإنسان بخالقه، وتمنحه الثبات في مواجهة السيولة القيمية الناتجة عن تهميش الدين في الحياة العامة. إن استبدال "مركزية الإنسان" بـ "مركزية الحق الإلهي" في التربية هو الكفيل بصياغة هوية إسلامية معاصرة قادرة على استيعاب منجزات العصر دون الذوبان في انحرافاته الفكرية، مؤكداً على أن كمال الإنسان لا يتحقق إلا بالخضوع الاختياري لمنهج الله الذي يوازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد (الكيلاني، ٢٠٠٩، ص ٢١٠).

المبحث الثالث: التحديات العقدية للقيم التربوية المعاصرة وآليات المعالجة

تحديات العولمة الثقافية والفضاء الرقمي وأثرهما في الوعي العقدي

تُعد العولمة الثقافية والتكنولوجية التحدي الأبرز والأكثر تعقيداً الذي يواجه المنظومة التربوية الإسلامية في الوقت الراهن؛ إذ إنها لا تكتفي بتسويق المنتجات المادية العابرة للحدود، بل تسوق لمنظومة قيمية متكاملة تهدف إلى "عولمة القيم" وتذويب الخصوصيات العقدية والثقافية للأمم لصالح نموذج مادي واحد. وفي هذا الفضاء الرقمي المفتوح، يجد الناشئة أنفسهم أمام سيل هادر من الأفكار والمضامين التي تروج لـ "اللاأدرية" و"النسبية الأخلاقية" عبر وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية، مما يؤدي بالضرورة إلى إضعاف "اليقين العقدي" وتحويل القيم من مبادئ ربانية ثابتة إلى مجرد "موضات" سلوكية عابرة تخضع لسطوة المشاهدات ولغة "الترينديات" الرقمية التي لا تقيم وزناً للحق أو الفضيلة بقدر إقامتها وزناً للانتشار والقبول الجماهيري المؤقت (السامرائي، ٢٠١٩، ص ٢١٥)إن خطورة هذا التحدي تكمن في كونه يستهدف "المرجعية العليا" الحاكمة لهوية الفرد؛ فبدلاً من أن يكون الوحي هو المهيمن على السلوك والمعيار الذي تُوزن به الأفعال، تصبح "الروح الاستهلاكية" وضغط القبول الاجتماعي الرقمي هما المعيار الحاكم والمشرع للقيم. هذا التداخل العميق بين ما هو تقني وما هو قيمي أفرز نوعاً من "الانحراف الفكري" والسيولة العقدية التي تتطلب تدخلاً عَقَدياً مباشراً لفحص المحتوى التربوي الرقمي ووزنه بميزان الحق والباطل الذي يؤصل له علم الكلام (عطية، ٢٠١٨، ص ٢٥٥). فالبيئة الرقمية لم تعد مجرد أداة للتواصل، بل تحولت إلى "بيئة تربوية موازية" تتصادم في كثير من مخرجاتها مع مبادئ "الاستخلاف" والمسؤولية الأخلاقية، حيث يُنزع الإنسان من سياقه التعبدي ليُحصر في سياق نفعي براجماتي يقدس اللذة والمنفعة الآنية على حساب الغايات الوجودية الكبرى.وعلاوة على ذلك، فإن العولمة الثقافية تعمل على غرس "الاستلاب القيمي" عبر تهميش دور الدين في الحياة العامة وتصويره كعائق أمام التقدم والحداثة. وهذا الأمر يفرض ضرورة قصوى لإعادة الاعتبار لدور العقيدة الإسلامية في توجيه التفاعل مع التقنية، لا من باب الانغلاق، بل من باب "التحصين العقدي" الذي يضمن عدم ذوبان الهوية الذاتية في الهوية العالمية المادية الجارفة. إن بناء هذه الحصانة يتطلب

صياغة خطاب تربوي يربط بين "اليقين بالله" وبين "الوعي الناقد" لما يُطرح في الفضاء الافتراضي، ليكون الناشئ قادراً على فرز الغث من السمين، ومدركاً أن انتماءه لـ "القطعيات العقدية" هو الذي يمنحه العزة والاستقلال في زمن التبعية الثقافية المطلقة (الجبوري، ٢٠٢١، ص ١٢٠).

آليات بناء الحصانة العقدية وتفعيل دور علم الكلام في التربية

لمواجهة هذه التحديات الجسيمة، بات من الضروري الانتقال بـ "علم الكلام" من كونه درساً نظرياً حبيساً في المتون القديمة، إلى كونه "منهجاً نقدياً" حيوياً يُفعّل في الواقع التربوي المعاصر لبناء الحصانة الفكرية واليقينية. وتتمثل أولى هذه الآليات في إعادة صياغة المادة العقدية بلغة وأسلوب يتناسبان مع معطيات العقل المعاصر وتحدياته؛ بحيث لا تقتصر التربية على التلقين، بل تركز على بناء "المنطق الإيماني" المتين الذي يُمكّن المتعلم من تفكيك الشبهات القيمية الوافدة ذاتياً وفضح تهافت المنطلقات المادية. إن تفعيل مبدأ "الاستدلال العقلي الكلامي" يسهم بشكل مباشر في إقناع الناشئة بأن القيم الإسلامية ليست مجرد قيود تحد من حريتهم، بل هي "مقتضيات فطرية وعقلية" تضمن كرامة الإنسان وتحميه من التردي في وحل "استلاب المادة" وضياع الهوية (الطائي، ٢٠٢١، ص ١٠٥)كما تشمل آليات المعالجة العملية ضرورة دمج "القيم الكلامية" المستمدة من أمهات المسائل (مثل قضية التحسين والتقبيح، ومقتضيات الصفات الإلهية كالعلم والحكمة والعدل) ضمن المناهج الدراسية والأساليب التربوية الحديثة. والهدف من ذلك هو أن يدرك الطالب أن القيم الكبرى كالصدق والأمانة والمسؤولية ليست مجرد سلوكيات "براجماتية" للمنفعة، بل هي قيم لها "جذر غيبي" يتصل بمراد الخالق، ولها في الوقت ذاته "ثمرة واقعية" تحقق استقرار المجتمع وصلاحه (عبد العال، ٢٠١٤، ص ٩٥). إن هذا الربط بين "الميتافيزيقا" و"السلوك" هو الكفيل بردِ الاعتبار للقيم التربوية وحمايتها من التهميش الذي تفرضه العلمانية الشاملة في الفضاءات التعليمية. إن بناء هذه الحصانة العقدية يتطلب تضافراً وثيقاً وتعاوناً منهجياً بين مؤسسة الأسرة والمؤسسة التعليمية لغرس "ميزان العقيدة" كمعيار حاكم وحيد للتلقي الثقافي والفكري؛ فالعقيدة حين تتحول من "معلومات" إلى "منظومة وقائية"، فإنها تمنح الفرد القدرة على "الانفتاح الواعي" الذي يستوعب النافع من منجزات العصر وقيمه الإيجابية، ويرفض بصلابة كل ما يتصادم مع ثوابت التوحيد وقطعيات الدين (عطية، ٢٠١٨، ص ٢٦٠). وبذلك يكتمل دور العقيدة في ضبط السلوك التربوي، محققاً التوازن المنشود بين مقتضيات المعاصرة وضوابط الأصالة الشرعية. إن الغاية النهائية هي بناء جيل لا يكتفي بالثقة بحضارته وقيمه، بل يمتلك الأدوات المعرفية والعقدية للدفاع عنها والمساهمة في تقديم البديل الحضاري القائم على "تزكية النفس" وعمارة الأرض وفق منهج الاستخلاف الإلهي (الجبوري، ٢٠٢١، ص ١٢٥).

نحو أنموذج تربوي عقدي معاصر (تفعيل قيم الاستخلاف والتزكية)

إن الغاية النهائية والمنشودة من وضع القيم المعاصرة في ميزان العقيدة ليست مجرد النقد السلبي أو الرفض المطلق لكل ما هو حديث، بل هي الوصول إلى صياغة "أنموذج تربوي إسلامي" متكامل ورصين، يمتلك القدرة على استيعاب معطيات العصر ومنجزاته العلمية مع الحفاظ الصارم على جوهر التوحيد وقطعيات العقيدة. وتبرز في هذا السياق قيمة "التزكية" كآلية تربوية كلامية محورية تهدف إلى إصلاح الباطن وتصحيح النية لينعكس ذلك صلاحاً واستقامة على الظاهر؛ فالتربية في المنظور العقدي لا تقف عند حدود الضبط السلوكي الخارجي أو الالتزام القانوني الجاف، بل تمتد لتشمل بناء "الوازع الداخلي" اليقيني القائم على استحضار مراقبة الله عز وجل في كل فعل وترك. إن هذا الأنموذج يعيد تعريف مفهوم "النجاح التربوي" ليكون مزيجاً متوازناً بين التفوق المادي المهني وبين الترقي الروحي الأخلاقي، وهو التوازن المفقود في الأنموذج الحداثي المعاصر الذي يحصر جودة التعليم في "المهارات الأدائية" والذكاءات الاصطناعية بمعزل عن الغايات الأخلاقية الوجودية الكبرى (الكيلاني، ٢٠٠٩، ص ٢١٥)ويتطلب تفعيل هذا الأنموذج المقترح تحويل "علم الكلام" من مجرد مباحث تجريدية وجدالات تاريخية إلى "قيم تطبيقية" حيّة تُعاش في الواقع اليومي للمتعلم؛ فبدلاً من الاكتفاء بتدريس صفات الله عز وجل كمفاهيم نظرية للحفظ، يتم تدريس "أثر هذه الصفات" في بناء الشخصية الإنسانية وصياغة السلوك. فعلى سبيل المثال، يتم استمداد قيمة "العدل والمساواة" من صفة العدل الإلهي، وتأصيل قيمة "العلم والبحث والابتكار" كاستجابة لمقتضى صفة العلم الإلهي، وتحويل قيمة "الرحمة والإحسان" إلى تمثّل بشري لصفة الرحمة الإلهية الواسعة (شحاتة، ٢٠٢١، ص ٣٢٠). إن هذا الربط "الأنطولوجي" هو الذي يحقق مفهوم "الاستخلاف" بمناهجه الشاملة، حيث يتحول المتعلم إلى عنصر فاعل ومنتج في عمارة الأرض وإصلاح المجتمع، وفي الوقت ذاته يظل محصناً بوعيه العقدي ضد التيارات المادية الاستهلاكية التي تحاول تقزيم دوره الوجودي وحصره في دائرة "الإنسان البيولوجي" أو الآلة الاستهلاكية.وبذلك، يقدم ميزان العقيدة البديل الحضاري المتكامل الذي يوازن بدقة متناهية بين "مركزية الحق الإلهي" وبين "كرامة الإنسان المستخلف"، مما يوفر للمنظومة التربوية المعاصرة روحاً جديدة تستمد ديمومتها من الاتصال بالخالق والالتزام بقيمه المطلقة والثابتة (الزهراني، ٢٠٢٠، ص ٥٨). إن هذا الأنموذج لا يؤسس لجيل متدين فحسب، بل يؤسس لجيل قادر على قيادة النهضة الحضارية بمرجعية إسلامية صلبة، تجعل من العلم والعمل وسيلة لنيل مرضاة الله وتحقيق رفاهية البشرية، مما يخرج التربية من أزمتها المعاصرة إلى آفاق الرحابة الإيمانية والفاعلية التاريخية التي يؤصل لها منهج المتكلمين في فقه العقيدة والحياة (العبيدي، ٢٠١٩، ص ١٨٠).

الخاتمة

لقد خلصت هذه الدراسة، بعد استعراض المنطلقات النظرية والموازين العقدية للقيم التربوية المعاصرة، إلى أن العلاقة بين العقيدة والقيم هي علاقة تلازمية عضوية لا تقبل الانفصام؛ إذ إن كل فعل تربوي يرتكز في جوهره على تصور عقدي مسبق عن الكون والإنسان والحياة. ومن خلال البحث، تبين أن المنظومة التربوية المعاصرة، رغم ما قدمته من منجزات تقنية ومعرفية، لا تزال تعاني من أزمة مرجعية حادة ناتجة عن "تأليه الإنسان" وتهميش "مركزية الوحي"، مما أوجد فجوة قيمية أدت إلى اضطراب الهوية وزعزعة اليقين العقدي لدى الناشئة. كما أثبتت الدراسة أن أدوات علم الكلام، لاسيما مباحث التحسين والتقبيح ونظرية الاستخلاف، قادرة على تقديم "ميزان نقدي" فائق الدقة، يمكنه تفكيك الشبهات الأخلاقية الوافدة والرد على دعوات "السيولة الأخلاقية" التي تروج لها الحداثة وما بعد الحداثة.ويمكن إجمال أهم النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية:

١.محورية التوحيد في بناء القيم :إن القيم التربوية في المنظور الإسلامي ليست مجرد مواضعات اجتماعية، بل هي ثمرات عملية لعقيدة التوحيد، مما يمنحها ثباتاً وموثوقية تحميها من التقلبات المادية والنفعية التي تتسم بها القيم المعاصرة.

٢.قصور الرؤية المادية :أثبت البحث أن حصر القيم في دائرة "المركزية الإنسانية" والمنفعة الآنية يؤدي إلى تجزئة الإنسان وفصله عن أبعاده الروحية والغيبية، وهو ما يفسر حالة القلق القيمي والاغتراب التي يعاني منها الإنسان المعاصر في ظل المنظومات التربوية المادية.

٣.فاعلية المنهج الكلامي :كشفت الدراسة عن أهمية استعادة علم الكلام كأداة "تحصين تربوي" لا مجرد جدل نظري؛ حيث يسهم المنهج الاستدلالي العقدي في بناء "العقل الناقد" لدى المتعلم، مما يجعله قادراً على فرز القيم الوافدة وتمييز ما يتفق منها مع فطرته وعقيدته.

٤.تحدي العولمة والبديل العقدي :أظهرت النتائج أن مواجهة "العولمة القيمية" لا تكون بالانغلاق، بل بتقديم "البديل التربوي العقدي" الذي يوازن بين كرامة الإنسان كخليفة في الأرض وبين عبوديته لله، وهو التوازن الكفيل بتحقيق الاستقرار القيمي والاجتماعي.

هوامش البحث

١. دراز، محمد عبد الله. (٢٠٠١). دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن (ط١). دار الفكر، ص ١–٧٨٤.

٢. طه، عبد الرحمن. (٢٠٠٦). سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية (ط٢). المركز الثقافي العربي، ص ١–٢٤٠.

٣. عبد العال، حسن إبراهيم. (٢٠١٤). العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المنظومة القيمية لدى الناشئة (ط١). دار الفكر العربي، ص ١–٣٢٠.

٤. الكيلاني، ماجد عرسان. (٢٠٠٩). فلسفة التربية الإسلامية: دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة (ط٤). دار القلم، ص ١–٥٢٠.

٥. المبارك، محمد. (١٩٩٦). نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث (ط٢). المعهد العالمي للفكر الإسلامي(IIIT) ، ص ١–١٨٠.

٦. المسيري، عبد الوهاب. (٢٠٠٢). العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (ط١). دار الشروق، ج١، ص ١–٤٥٠.

٧. منصور، محمد السيد. (٢٠١٨). القيم الأخلاقية بين التحسين والتقبيح العقليين والشرعيين: دراسة كلامية مقارنة (ط١). دار الكلمة للنشر، ص ١–٢٩٠.

٨. بو غانم، عبد الله. (٢٠٢٠). النسبية الأخلاقية في الفكر المعاصر ووزنها بميزان التحسين والتقبيح عند المتكلمين .مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية، العدد (٤٧)، ص ٥٥–٨٨.

٩. الجبوري، إيمان عباس. (٢٠٢١). القيم التربوية في المنظومة العقدية الإسلامية وأثرها في مواجهة الانحراف الفكري .مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد (٦٥)، ص ١١٢–١٤٥.

١٠. الزهراني، فهد بن علي. (٢٠٢٠). القيم التربوية في ضوء مفهوم العبودية: دراسة عقدية في نقد المركزية الإنسانية المعاصرة .مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود، مجلد (٣٢)، العدد (١)، ص ٤٥–٨٢.

١١. السامرائي، مروان مرشد. (٢٠١٩). التحديات العقدية للقيم التربوية المعاصرة في ظل العولمة الثقافية .مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد (٢٦)، العدد (٤)، ص ٢١٠–٢٣٥.

١٢. سراج، شريف. (٢٠١٩). أزمة القيم في الفكر المعاصر: رؤية نقدية من منظور العقيدة الإسلامية .مجلة مجمع الفقه الإسلامي، الدورة (٢٤)، ص ١٥–٤٨.

١٣. شحاتة، علي محمد. (٢٠٢١). القيم التربوية في ضوء صفات الله العلية: دراسة في الأنطولوجيا الكلامية .مجلة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، العدد (٣٩)، ص ٣٠٢–٣٤٠.

١٤. الطائي، رائد نصار. (٢٠٢١). أثر علم الكلام في تحصين المنظومة القيمية ضد الشبهات المعاصرة .مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد (٦٧)، ص ٨٩-١٢٠.

١٥. العبيدي، ابتهال كمال. (٢٠١٩). المرجعية العقدية للقيم التربوية في الفكر الإسلامي .مجلة الباحث التربوي، جامعة بغداد، العدد (٥٢)، ص١٦٧-١٩٤.

١٦. عطية، أشرف فتحي. (٢٠١٨). دور العقيدة في ضبط السلوك التربوي لدى الشباب في مواجهة تحديات العولمة .مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، جامعة دمنهور، مجلد (١٠)، العدد (٢)، ص ٢٤١-٢٨٠.